فاطمة الزهراء جاد

حياة بلا أسماء

وقفت تتأمل وجهها في المرآة بتمعن وتتساءل:

ترى هل تركت الأيام آثارها بوجهي دون أن ألاحظها، كفرشاة فنان بارع يعمل بنعومة وتراكمية فلا تدرك تأثير تلك الخطوط إلا حين ينهي عمله؟ في حين كانت فرشاة ذلك الفنان أكثر حزمًا وقوة معه لتترك تلك الخطوط العميقة بوجهه. أم أن الزمن لم يجدني بين السائرين في دربه فتجاهلني ونساني كما اعتدت دائما تجاهله والسير في طريقي الخاص دون وضعه في اعتباري؟

لم تستغرقها هذه الأفكار سوى لحظات قليلة، لتشرد ببصرها بعيدًا وتستعيد لحظات لقائها به، لحظات أقرب لومضة من الماضي، تلك الومضة التي تعيدك لنفس المشهد بكل تفاصيله وأحاسيسه وذكرياته. بالتأكيد هو، وسيم الجامعة والذي كان موضع اهتمام ومتابعة معظم الفتيات، فكن يشدن بوسامته وحضوره المسيطر.

كان يسبقنا بدفعتين دراسيتين، وكان هو موضع اهتمام الجميع، الفتيان يتجاهلونه وينتقضون تواجده الدائم وسط مجموعة من الفتيات وينتقصون رجولته. بينما الفتيات يرين فيه فتى الأحلام المتميز الذى لا ينقصه أي من مقومات الرجل المثالي. أما أنا فكنت مأخوذة بملابسه البيضاء الناصعة دائمًا. كنت كثيرًا ما أقف مبهورة (أتذكر ضاحكة) متأملة تلك الملابس واضعة عدة نظريات عن مادة ينشرها فوق ملابسه تؤدي لانكسار الأتربة والملوثات عنها،

أو أتخيله كائنًا فضائيًا يرتدي ملابس من مواد خاصة لا تتأثر بالأتربة والملوثات التي تملأ الفضاء، حيث لا شيء يحتفظ بلونه الأصلي في بلادنا، ولذا أطلقت عليه لقب "الوضّاح".

لم أهتم به كرجل، فدائمًا ما أنأى بنفسي عن ذلك اللهو الأنثوي الذي إن شاركت فيه شاركت على سبيل المزاح وبعث جو من المرح اللطيف الذي ينتهى بانتهاء الموقف، كنت شغوفة دائما بالمتابعة عن بعد دون أن أعرض ذاتى لمجازفات أو خيارات غير محسوبة النتائج.

كنت أتابعه هو وفتاته أو خطيبته، كما يعلم الجميع، باهتمام كبير. تلك الفتاة الجميلة المحبة التي طالما اندهشت كثيرًا لسعادتها الجلية بالتفاف الفتيات حوله كأنها أم محبة سعيدة بابنها الذي نضج جميلا وصار محط أنظار الجميع وموضع اهتمامهم. أما حين يزداد اهتمامه بإحداهن كنت أرى حزنها عميقا موجعًا كابنة ضيعها أبوها أو غادرها بلا عودة. أما هو فقد كان دائم الصمت في حضرتها متابعًا لها مأخوذا بنشاطها، مرحها، ومحادثاتها مع صديقاتها بعينين ملؤها الرضا والإعجاب والشغف، كعاشق للفراشات يتابع فراشته الجميلة دون كلل أو ملل. كان ينأى بصديقه الوحيد ليحادثه بعيدا عنها وعن مجموعتها كأنه يغار عليها من وجود رجل غيره في مجال تأثيرها، وكنت أتخيله يخشى أن ينهل آخر من جمال حضورها وروحها التي تنشر حولها طاقة من الجمال والحب. كنت أرى عدم تواجد رجال في مجموعتهم من عميق

رجولته، على عكس ما يدعي أقرانه، فهو غيرة عليها ورغبة منه بالاستئثار بسحرها لنفسه دون غيره كأي حبيب هائم يخشى على من يحب من نسمة الهواء المارة. كم تابعت تواجدهما في المدرجات، صالة الطعام وحتى حديقة الجامعة باهتمام جم، كمن يتابع مسلسلا بشغف ومثابرة منتظرا الحلقة التالية. كانوا بمثابة مصدر التسلية الأوحد لي في سنتيّ الجامعيتين الأوليين، أنهي محاضراتي لأبحث عنهم لأرى فصلا جديدًا من روايتهما.

حتى بعد تخرجهما ظلت أماكن تواجدهما القديمة لناظري ممتلئة بوجودهما ومشاعرهما التي كانت تفيض على كل ما حولها، فأشعر أن الأماكن التي اعتادا التواجد بها قد تشبعت بهما، فأصبحت تعكس صورة ثلاثية الأبعاد لهما.

كنت أحيا قصتهما بجميع حواسي، فدائما ماغصت بحيوات من حولي حتى أنني صرت أشعر باكتفاء من عاش الكثير والكثير دون أن أعرض نفسي لألم حقيقي أو فرح حقيقي، أعيش جميع القصص والبدائل وأنا في حيز أمان لا أغادره أو أضحي به.

ولكن لقائي به اليوم في أحد مراكز التسوق كان له صدى مدوٍ في نفسي لارتطامي بأرض الواقع الموجعة. كيف غافلني الزمن لهذه الدرجة فصرت كالمغيبة عن أثره، وها أنا ذا أنظر إليه متعجبة كيف تغير بهذا الشكل فلم يعد باقيًا منه سوى ملابسه شديدة البياض والتي مازالت باقية على عهدها لتعيد لي رؤى الأيام الخوالي.

ونظرت إليه محدقة وقابل نظراتي بتحديق مدقق كمن يتذكر شيئا ما أو من شاهد شيئا مألوفا لناظريه. ترى هل تذكر تلك الفتاة البريئة التي كانت متابعًا شغوفا لهما وشاهدًا على قصة حبه؟ أم أنه رد فعل تلقائي لتحديق أحدهم بك؟ وانتقلت عيناي باهتمام إلى تلك المرأة بجواره لأرى ماذا فعل الزمن بفتاته لعلي أرى بها ما يخيب ظنوني عن مباغتة الزمن لي. لكن صدمتي كانت أكبر حين انتقلت عيناي إلى المرأة التي بجانبه، والتي كان جل اهتمامها منصبًا على ولد وفتاة على أعتاب مرحلة المراهقة. كان الولد هو النسخة المصغرة لذلك "الوضّاح" الذي كان معنا في الجامعة، بينما كانت الفتاة مزيجًا لكليهما، مما جعلني أرجح وبشدة أنهما ولداه وهذه أمهما. أما ما أثار صدمتي عندما نظرت إليها، حقيقة أنها لم تكن فتاته في الجامعة، كانت امرأة أخرى تمامًا. وبدأت رأسي تموج بالكثير من الأفكار والتساؤلات لم ينتشلني منها سوى عينيه تحدقان بي بقوة تكاد تخترقني، انتفضت لنظراته وجلا وخجلا ولملمت شتات نفسي وتحركت مهرولة كطفل ضبطته أمه منسجما يرسم أحلامه على حائط منزلهم.

جريت هاربة لأقرب دورة مياة حيث أستطيع الهروب من عيونه المتابعة المندهشة، هربت لأجد مرآة أنظر فيها إلى صورتي المنعكسة بوضوح على صفحتها. وأخذت أفكر في حالي للحظات شرد عقلي بعدها في مئات الأفكار وعلامات الاستفهام. أين فتاته؟ ترى كيف افترقا؟ هل فرقتهما مشاكل الأسر على التجهيزات؟ هل اكتشفا أن

حبهما لم يكن ناضجًا بشكل كاف ليستمر؟ هل تزوجت هي الأخرى أم مازالت على عهدها معه بينما لم يستطع هو صبرًا واختار أن يبني حياة أخرى وحبًا آخر مع غيرها؟ هل ماتت وكيف حدث هذا؟ هل مازال حبها يملؤه؟ هل يتذكرها كما أفعل أنا وأتذكر كل لحظة شاهدتها لهما؟ هل؟ هل؟ أخذت الأسئلة تتوالى هادرة في ذهني دون توقف لأحيك عشرات القصص بعدة نهايات مختلفة لقصتهما والتي كانت يوما ما جزءًا لا يتجزأ مني. وذهلت عما حولي في هذا البحر اللجي من التخيلات والتساؤلات التي لن يروي ظمئي فيها أحد لأن أبطالها كانوا مجرد "الوضّاح" وفتاته اللذين لم ولن أعرف أسماءهما يومًا.